التجارة عند العرب ومجاوريهم

بقلم عيسى اسكندر المعلوف
صاحب مجلة الآثار ومؤلف تاريخ الامم الشرقية القديم

تجارة العرب في الجاهلية

ان موقع بلاد اليمن المتوسط بين الامم الاخرى حمل سكانها على التجارة منها واليها فاتصلوا بالهند واستجلبوا حاصلات بلادها ومصنوعاتها مما كان يروج عند الامم المصرية والفينيقية والبابلية والاشورية والكلدانية وغيرها

فنقلوا تلك الحاصلات والمصنوعات بحراً وبرّاً فسرت مرافقهم ومحطاتهم التجارية وكان من اهمها جزيرة سقطرة لحسن موقعها المتوسط . وعدن وحصن غراب (قانا) وميوس

وكانت لقوافلهم مراحل ومخافر والعرب في طريقها كلما وصلت الى قبيلة حفرتها باجور خاصة الى ان تصل بامان الى محطاتها الاخيرة ولكنها كانت تقاسي من ذلك الامرّين

وفي اسفار التوراة ذكر القوافل الاسماعيلية التي كانت تنقل الحاصلات والبضائع الى مصر . واحدى تلك القوافل هي التي اشترت يوسف الصديق من اخوته ونقلته الى البلاد المصرية فاشتهر فيها بعفته ودرايته وحكمته . وفي كتب بلينيوس وبطليموس وغيرهما تفاصيل لهذه التجارة ومسافاتها ومحطاتها وشؤونها الاخرى . ومن راجع سفر حزقيال في التوراة (ص ٢٧ ع ٢١ — ٢٣) وجد اسم العرب ورؤساء قيدار وتجار عدن وغيرهم

وعقدت معاهدة تجارية بين العرب والرومان وفقاً لقانون سنّهُ تاودوسيوس الكبير رتّب فيه شؤون الوفود الذين كانوا يرحلون من الاسكندرية الى بلاد حمير والحبشة ونظامهم التجاري . وكان العرب في القرن السابع قبل الميلاد صلة للتجارة بين الشرق والغرب يتناقلونها بينهما ويربحون اموالاً طائلة . وقد قدر بعضهم ثمن البضائع التي كان ينقلها تجار العرب على قوافلهم في كل سنة بنحو مائة وسبعين الف ليرة استرلينية من نقودنا الحاضرة . وما كان يدفعه التجار سنويًّا اجرة قوافل قدر بنحو ثلاثة وثلاثين الف ليرة

ومعظم ما كان اليمنيون يتجرون به الذهب والحجارة الكريمة والقصدير والعاج وخشب الصندل والافاويه والتوابل والقطن من الهند . وريش النعام والعاج والذهب والسطور والاطياب والابنوس من شواطىء افريقية الشرقية . والالبان والبخور والمرّ واللادن وبعض الحجارة الكريمة من اليمن . والعود والند من سقطرة . واللؤلؤ من البحرين

فصار اتصال تام بين افريقية والشرق الاقصى والبلاد اليمنية وشاعت التجارة بينهم

كما شاعت بين الفينيقيين والبابليين ونحوهما. وفضل اليمنيون الطرق البرية على البحرية لاخطار الانواء في هذه كما فضلوا احياناً الطرق البحرية لما يتجشمونه من غزوات القبائل في طريقهم

وكان السبئيون من العرب يحملون مصنوعات صور وحاصلات الشام إلى بلادهم كالحنطة والخمر والزيت وصناعات الفينيقيين كالزجاج والارجوان . ويأخذون من آسية الشرقية المنسوجات والآنية الحديدية والصفرية وسبائك الفضة وأشباهها. وبقيت تجارة اليمن متسعة النطاق رائجة الاسواق يشتغل بها من قبائلهم القديمة المعينيون والحيائيون والسبئيون والتنابيون والقدريون . الى ان امتدت سلطة الرومان على البحار ونزعت التجارة من ايدي الامم الاخرى فضعف امر العرب . وكانت مملكة زنجبار تابعة منذ القرن الاول للميلاد للمملكة العربية الجنوبية العربية التي كانت قد مدت سلطتها على شرق افريقية كله وكان من ملوكها عفير وسبأ وحمير فبعض اولاد هؤلاء جلسوا على عرش زنجبار وحكموا في تلك البلاد

وكان ملوك قحطان سنة ١٨٠٠ ق. م. غزوا جنوبي جزيرة العرب وحكموا فيها

وذهبت طائفة منهم الى حضرموت وطائفة اسست مدينة سبأ الشهيرة بحضارتها وعمرانها وموقعها وهؤلاء هم بنو يعرب. وحكم بعضهم المملكة العثمانية ومن ملوك عمّان ومن سكانها عمروا السلطنة الزنجبارية فتاريخ زنجبار مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ ملوك سبأ وعمّان. وكان عرب سبأ يحتكرون التجارة في الشاطىء الشرقي الافريقي وهم اشبه بالفينيقيين في البحر الابيض. فالأول ملوك الشواطىء العربية والبحار الشرقية الهندية والآخرون ملوك شواطىء البحر الابيض المتوسط والبحار الغربية الاوربية . اما العرب الذين حكموا هذه البلاد فكانوا تجارة ماهرين وكان بطء سير السفن واستعمالها هبوب الرياح لايخفف من نشاطهم وسعيهم في بحر البحار فكان الاسطول التجاري يؤلف من نحو اربعين سفينة تحمل اكثر من اربعة آلاف نسمة. وكان ثمر زنجبار هو المركز المتوسط في اسفارهم التجارية فيستريحون فيه زهاء سبعة اسابيع من رحلتهم ويعرّض بعض تجارتهم من البلح والتوابل والبن والصحناة (السمك المجفف) والمخارق العربية (البسط او السجاد) فيستبدلونها بالحبوب والاخشاب وبعض مواد البناء. فمتى اتمّوا اسابيعهم السبعة غادروها في اذار الى شبه جزيرة العرب . وذكر بطليوس الجغرافي الشهير ثمر افريقية وما كان معلوماً منه لعهده واكتشف اثراً نفيساً اسمه « المرشد للمحيط الهندي » ولعله لمؤلف يوناني عاش على ضفاف البحر الاحمر . ويقال انه كتب سنة ٦٠ للميلاد . وفيه وصف التجارة في افريقية مع العرب ولا سيما مع الزنجباريين

وكان الانباط في وادي موسى يتخزون بضائعهم بترة او سالع التي اشتهرت بموقعها التجاري فكانت موقفاً للقوافل ومحطاً لرحالها . فحفروها من غزوات البدو وعززوها

وبسطوا جناح الامن في تلك البقاع فأزهرت التجارة اينما أزهار وافقت شهرتهم بها

وامتدت تجارة العرب في ايامها الاولى الى جهات الهند والصين وبلاد فارس رما اليها برّاً وبحراً وجلبوا حاصلات تلك البلاد ناقلين اليها ما لديهم من المواد التجارية . حتى امتزجوا بالامم المختلفة واحتكوا بهم فاقتبسوا من مدنيتهم ما اضافوه الى عمرانهم واجتماعهم وحرصوا على ما يفيدهم ونبذوا ما يخالفهم فلذلك بقيت مدنيتهم وطنية ثم تغيّرت بتغيّر الازمان وتأثير الفاتحين مما هو معروف عند جميع الامم من التقلبات الاجتماعية والتغيرات المدنية وانتشر المذهب الاسلامي في كثير من البلدان التي خالطوا سكانها بعد ذلك

وكانت تقام للعرب اسواق تجارية وادبية مشهورة في التاريخ اعظمها (سوق عكاظ) في بلاد العرب . فكانت اشبه بالمعارض الصناعية والزراعية للتجارة عندنا وكانت لها اخوات في كثير من العواصم والمدن تهافت عليها الناس للبيع والشراء والمباحثة فجمعت بين المعارض ومنتديات الادب او المجامع العلمية عندنا . ومن ذلك اسواق العراق قال النغلبي

وفي كل اسواق العراق اتاوة[1] وفي كل ما باع امرؤ مكس[2] درهم

التجارة في صدر الاسلام

اشتهرت قبيلة النبي (ص) المعروفة باسم قريش بتجارتها . وكان نبي المسلمين (ص) تاجراً قبل اظهار دعوته . وقد دخل دمشق تاجراً وله اخبار فيها مشهورة

ومن الاقوال المأثورة في التجارة قول القرآن الشريف : « يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الاّ ان تكون تجارة عن تراضٍ منكم » و« أحل الله البيع وحرم الربا » وعن مجاهد في قول القرآن الشريف : « يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم » يعني التجارة في الاسواق . ومن احاديث النبي (ص) قوله : « ما امثل تاجر صدوق وما اقفر بيت فيه خل » و« اطيب ما يأكل الرجل من كسبه » والكسب في القرآن الشريف التجارة — و« التاجر الصدوق مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً » و« تسعة اعشار الرزق في التجارة » و« ان اطيب الكسب كسب التجار الذين اذا حدثوا لم يكذبوا واذا أؤتمنوا لم يخونوا واذا وعدوا لم يخلفوا واذا اشتروا لم يذمّوا واذا باعوا لم يمدحوا واذا كان عليهم لم يمطلوا واذا كان لهم لم يعسروا » و« خير تجاركم الخزّ وخير صبيانكم الخرز » اي الخياطة وفي الحديث عن قيس بن ابي غرزة : « كنا نسمى (السماسرة) فمرّ بنا النبي (ص) باحسن منه فقال (يامعشر التجار) »

(١) استعمل الشاعر (الاتاوة) لما يؤخذ رسماً على الاسواق كما تؤخذ الاتاوة على الارض الخراجية

(٢) (المكس) دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في اسواق الجاهلية . وفي المصباح : قد غلب (المكس) في ما يأخذه اعوان السلطان عند البيع والشراء . وفي الحديث « لا يدخل صاحب مكس الجنة »

وقال الامام عمر ابن الخطاب (رضه) : « لا يقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهمّ ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » — وقال ايضاً : « ما مِيتة بعد القتل في سبيل الله احبّ اليّ من ان اموت بين شعبتي رحلي اضرب في ارض الله ابتغي من فضل الله » . وقال الامام علي بن ابي طالب : « لم يذهب من مالك ما وعظك[1] » و « خير المال ما اغناك وخير منهُ ما كفاك » . و « تفقه ثم اتجر فان التاجر فاجر الاّ من اخذ الحق واعطاه » . وكان الامام علي هذا يدور في سوق الكوفة ويقول : « معاشر التجار خذوا الحق واعطوا الحق تسلموا . لا تردّوا قليل الربح فتحرموا كثيرهُ »

وقيل لعبد الرحمن بن عوف الصحابي : « ما سبب يسارك قال ثلاث (١) ما رددت ربحاً قط (٢) ولا طلب مني حيوان فأخرت بيعهُ (٣) ولا بت بنسيئة »

وكان العرب يتجرون مع الهند والصين لقربهم منهما كما اتجروا مع البعدين عنهم . وفي زمن الخلفاء الراشدين سافر ابن عبد الوهاب وكثيرون غيره من البصرة الى بلاد الصين وسنة ٢٣ هـ (٦٤٣ م) كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر : « ان الغلاء قد وقع بالمدينة وان الناس في جهد من الغلاء » . فبعث عمرو بجمال موقرة حنطة اولها بالاسكندرية وآخرها بالمدينة . قال : فكتب عُمَر الى عمرو : بأن يحفر خليجاً يحمل فيه الغلال الى القلزم (البحر الاحمر) ومن القلزم الى المدينة في البحر المالح . فحفر عمرو الخليج المعروف (بخليج امير المؤمنين) وكانت المراكب تحمل الغلال من الاسكندرية الى القلزم في الخليج ومن القلزم الى المدينة في البحر المالح

قال ابن علي الدمشقي في كتابه (الاشارة الى محاسن التجارة [2]) والشيء بالشيء يذكر : « والتجار المجربون يقولون اشترِ غالي الرخيص ولا تشترِ رخيص الغالي . . . . واعلم ان البضائع صاحبها معرض لتمثل القلب والخوف من انقطاعها سيما اذا كانت غالية او مما يفسد بسرعة قال الله تعالى : « وتجارة تخشون كسادها » وروي عن النبي (ص) انهُ قال : « نزعت البركة من الشيء الغالي والشيء الرديء » . فالشيء الغالي قد اخذ الفائدة فيه غيرك ونزعت منهُ البركة فهو الى الخسران اقرب منهُ الى الربح » — الى ان قال : وأصل التجارة في البيع والشراء ان يشتري من زاهد او مضطر الى اخذ الثمن ويبيع من راغب او محتاج الى الشراء . لان ذلك من اوكد الاسباب الى مكان الاستصلاح في المشترى وتوفر الربح »

وكان الخلفاء الراشدون والصحابة ومن والاهم اصحاب اعمال تجارية ونحوها فكان ابو بكر الصديق بزّازاً ومثلهُ كل من عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف . وكان عمر ابن

(١) وتقول العامة في سورية ولبنان: «الخطرة اللي ما بتخسر منها بتمر» و«الانسان ما بيتعلم الا من كيسه»
(٢) سيأتي وصف هذا الكتاب في آخر المقالة وهو في ادب التجارة وشؤونها وطرقها واخبارها

الخطاب دلالاً او تاجراً وابو سفيان بن حرب بيّاعاً . وعبدالله بن جدعان نخّاساً . وثابت بن ترة صيرفيًّا بحران . وكثير غيرهم كانوا كذلك

ووجد سند دين لعبد المطلب عم النبي (ص) قد دوّن على رق غزالٍ وهذا نصهُ : « باسمك اللهمّ ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من اهل مكة على فلان الحميري من اهل زبد صنعاء عليه الف درهم فضة كيلاً بالحديد . ومتى دعاه بها اجابهُ . شهدالله بذلك والملكان »

وقال ابن الاثير في اسد الغابة (٥:٢١٦) : « كان (ابوسفيان) تاجراً يجهّز التجار بماله واموال قريش الى الشام وغيرها من ارض العجم وكان يخرج احياناً بنفسه وكانت اليه راية الرؤساء التي تسمّى العقاب . واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس » ونسبت اقوال في ذم التجارة ومدحها للنبي (ص) والخلفاء والشعراء جمعها المقدسي في كتابه (اللطائف)

وضرب اليمنيون نقوداً نقشوا عليها صور الملوك وأسماءهم والمدن التي ضربت فيها وذلك بالحرف المسند ووشوها بالرموز السياسية والاجتماعية مثل رمز الحراثة بالبومة او النصر او الثور . ورمز الدين بالهلال . وحوطها كتابات بالمسند . ومن هذه النقود مجاميع في المتاحف اهمها في (متحف ڤينا) الادبي . وكانت نقود لتدمر في زمن وهب اللات (اثينودورس) ابن زنوبيه الذي خلع سلطة الرومان وتولى حكم تدمر سنة ٢٧١ م فأزال اسم اورليان الامبراطور من النقود التدمرية ، وسكها باسمه ولقبه واضاً رسمه عليها. وكانت نقود والدته زنوبيه مصورة برسمها وحولهُ اسمها بالاحرف اليونانية (سبتيا زنوبيا) وعلى الوجه الآخر رسم اشبه برسم المشتري

وكان على النقود النبطية صورة غزال وكتابة عبرانية اولاً تدل على انهم اخذوها عن العبرانيين . وأول من ضرب النقود من الانباط الملك الحارث الثالث الذي كان حاكماً في دمشق والبقاع متسلطاً عليها سنة ٨٥ ق . م اقتبس ذلك من اليونان في اثناء تسلطه على دمشق . وقد وجد دينار من سكّه عليه صورة جمل وشجرة عطرية ورمز اتفاق الحارث وسكاوروس والي البقاع . وسكت نقود باسماء النساء اللواتي شاركن الملوك بالحكم . وصوّر كثير من هذه النقود وعلى بعضها النسر وغيره وكتاباتها نبطية الحروف . وكانت تجارة الممالك العربية من المرّ واللبان مما تنتجه شبه جزيرتهم ثم العاج والابنوس والصدف والودع والذهب والرقيق الاسود (الخاسة) . وكان الذين يتجرون معهم من اغنى الممالك المتحضرة قصر وسورية وبابل واشور والفرس واليونان والرومان كانت أسواق ملوكاً وبلاد العرب وكانوا ينقلون بضائعهم مشحونة في مراكبهم الراسية بمدينة سيراف على الخليج العجمي وفي غيرها واول ميناء يصلون اليه مدينة مسقط في خليج عمان فيأخذون منها حاجتهم من الزاد

والماء وما يريدون نقله من الامتعة ويسيرون ماخرين ابحار الى الهند فيأخذون منها الماء والزاد وينجرون مع سكانها ثم يستأنفون مسيرهم جنوبي سيلان (سرنديب) حتى يصلوا الى جزائر نيقوبار ومن هناك الى مضيق ملقة (ملقا) . ومن هنا يحولون سفرهم تلقاء الشاطىء الجنوبي من شبه جزيرة ملقة سائرين شمالاً حتى يصلوا الى خليج سيام ومنه الى جزيرة كندور ثم الى مدينة كنفو الصينية وهي مرفأ هنكشوفو القديم

هذا بعض ما ذكره الرحالة والملاحون في كتب مخطوطة منها في (دار الكتب السورية بدمشق) للملاحة لابن ماجد بالعربية وغيره بلغات اجنبية سيأتي ذكر بعضها

وروى غوسطاف لوبون الفرنسي ما ملخصه : أن للعرب ثلاث طرق للتجارة طريق برية وطريقان بحريتان فالبرية كانت تربط مراكز الشرق الكبرى كسمرقند ودمشق وبغداد حتى بلاد فارس وكشير مما يجاورها . والطريقان البحريتان من الهند الى مرافىء خليج فارس ومنها الى شبه جزيرة العرب حتى البحر الاحمر . والبضائع تصل الى بغداد فتحملها القوافل موزعة اياها على البلدان . وكانت عدن محل تبادل حاصلات الصين والهند ومصنوعاتها بحاصلات الحبشة ومصر ومصنوعاتها . فتنقل الى قناة السويس ومنها الى الاسكندرية والى سواحل سورية وكان تجار اوربة من جنوى وغيرها ينزلون في الاسكندرية لابتياع البضائع الشرقية وحملها الى اوربة فكانت مصر واسطة العقد بين الشرق والغرب فاثرى الخلفاء بواسطتها وكانت علاقة العرب مع الصين قبل الاسلام ثم اشتهرت بعد الخلافة الاسلامية وكانت طرقهم برية وبحرية . فالبحرية من سواحل شبه جزيرة العرب او مرافىء خليج فارس الى جنوبي الصين

ولقد حمل تجار العرب من بلادهم الحجارة الكريمة والعقود النفيسة والاقمشة الصوفية والاجواخ والحيول واستبدلوها بالشاي والاقمشة الصينية والخزف ونحو ذلك . وعقدت بينهم معاهدات تجارية ووصل العرب الى شمالي اوربة بتجاراتهم كما دلت النقود التي تركوها في تلك الاصقاع الشاسعة والخطوط الكوفية ونحوها . وكانت البضائع التي يتناولها العرب من شمالي اوربة كثيرة منها المعدن ولاسيما القصدير والفرو والعنبر . ويأخذ التركيون مقابلها من العرب انواع الاقمشة والسجاد الشرقي النفيس والاباريق المحلاة بروائع النقوش والحلى النفيسة . وعلى الجملة فان اكثر الامم التي كانت بين العرب ولاسيما اليهود اشتهرت بالتجارة والصرافة وكانت القوافل التجارية كثيرة تدفع لقطاع الطرق الخفارة لتسلم من غزوهم ومتى وصلت سالمة تقيم لها البلاد الافراح

وكذلك قبائل الترك القديمة كانت صلة تجارية بين الشرقين الاوسط والادنى تحمل حرير الصين وغيره من حاصلاتها مما ادى الى علاقات اقتصادية بين خاقان الترك وشاه الفرس وامبراطور الروم فكانت لهم سفارات للمفاوضات بالتجارة ومعاهدات ومنافسات